بقلم : الدكتور محمد كامل حسين

حدثوه اعجب الحديث عن واد فى اعلى جبال سيناء فيه اشجار من الفاكهة والزيتون لم ير الناس مثلها قط . وفيه عيون من ماء بارد وعذب صاف ينحدر من صخور عالية . يستقى به الناس وتروى به الارض فى غير عناء . وتحدثوا عن طيب هوائه ، وان صيفه لاحر فيه وان برد شتائه غير مرهق لما يحيط به من قمم شاهقة تحميه قر الرياح الهوج التى تعصف فوق اكثر الجبال . وقالوا انه يسقط من سمائه شتاء شيء لايعرفه اهل السهول يشبه القطن يغطى الارض جميعا بثوب ابيض ناصع . حتى اذا اقبل الربيع ذاب هذا الثلج وسالت الاودية بماء عذب يجرى عيونا أو يقور آبارا قريبة المنال .

حدثه بهذا الحديث وبما هو اشد منه غرابة البدو الرحل الذين يجوبون الصحارى والجبال وردد حديثهم الصيادون الذين اقام بينهم منذ فر من مصر الى ساحل البحر الاحمر . ولم يكن اولئك ولا هؤلاء ممن يوثق بكلامهم ولم يكن لموسى عهد بهذا الذى يتحدث به الناس ولم يكن يعرف شيئا عن الجبال ، فخامره شك كثير فى هذا الذى سمع وحسب اكثره من نسج الخيال.

وروى الرواة ان اهل ذلك الوادى قوم آمنون مطمئنون ، فيهم دماثةخلق وطيب نفس ، يعيشون عيشة راضية هادئة . لايطغى منهم قوى على ضعيف ولا يحقد منهم فقير على غنى ، وانهم لايردون سائلا ولايسيئون الى غريب، يضيفونه حتى يبلغ مأمنه . وان بعدهم عن صخب العالم وتقاتل الناس على خيرات الدنيا جعلهم من احسن الناس خلقا . وان حرموا لذات الثراء العريض .

ولما كثر الحديث عن ذلك الوادى اخذ موسى يؤمن ببعض مايرويه البدو عنه . واطمأن الىان هناك على كل حال فى اعلى جبال سيناء واديا نائيا عاليا خصبا جميلا وان يكن المرتقى اليه صعبا .

ورغب فى الهجرة اليه . وحببه الى نفسه انه بعيد لن يستطيع ان يتعقبه

اليه احد من الذين ائتمروا به ليقتلوه حين قتل رجلا من اهل مصر منذ امد غير بعيد .

واهمته هذه الرغبة فلم يعد يطيق صبرا على التفكير فى الهجرة اليه . واعد نفسه للرحلة الشاقة . جمع ما استطاع من أخبار عن الطريق خوفا من ان يضل بين هذه الجبال الشاهقة والوديان الملتوية وقيل له ان معالم الطريق واضحة . وانه ان احتمل مشقة الصعود فلن يخطىء الطريق . وعلم ان الوادى على مسيرة ثلاثة أيام من حيث كان يقيم على ساحل البحر .

ولم يخبر احدا بهجرته هذه . وحمل معه قربة صغيرة فيها ماء واخرى بها قمح مجروش . وبدا رحلته ذات صباح عند مطلع الفجر . ولم .. يفتقده احد من الصيادين الذين عاش بينهم . وكانوا لا يألفونه وكان لا يألفهم . ضاقوا به صدرا لجهله كل ما يعرفون . وضاق بهم صدرا لجهلهم كل ما يعرف . وظنوا به الكبرياء والصلف . وان حرص على ألا يدلهم شيء يعمله على احتقاره اياهم . فكان سعيدا ان يفارقهم ولم يكونوا آسفين لفراقه .

سار ساعات خمس فى السهل الذى يقع بين البحر والجبال . حتى اذا بلغ أول الجبال وجد منفرجا بين جبلين هو اول الطريق الذى ينتهى به الى حيث يريد . وشغلته جدة الرحلة وشوقه الى ما سيلقاه فيها عن التفكير فى ماضيه الذى يفر منه . وعن البحث فى المستقبل المجهول الذى هو قادم عليه فكان اقرب الى النشاط والفرح منه الى القنوط والتردد .

حتى وجد أمامه نخلة باسقة تحيط بها قطعة صغيرة من ارض خصبة خضراء ووجد عندها رجلا اشيب يعمل فى الارض . ووقف موسى عليه فلم يعره الرجل التفاتا . ورأى موسى ان يبدأ بالحديث فقال له .

ـ ماذا تفعل ياعم ؟

ـ ازرع .

وكاد موسى يضحك لهذا الذى يسميه الرجل زرعا . وعهده بالزرع فى مصر يكون ارضا شاسعة وماء غزيرا ودوابا كثيرة وعملا لاينقطع . ثم قد لايصلح الزرع بعد ذلك كله فكيف يكون زرعا هذه القطعة الصغيرة من الارض وتلك الشجرة الواحدة وليس حولها ماء ولا دواب .

ـ وماذا تزرع ؟ .

ـ هذا الذى تراه .

ـ أيكفيك هذا ؟.

ـ لو لم يكن يكفينى لرحلت .

وعز على موسى ان يجد نفسه مضطرا الى الحديث مع رجل على هذا القدر من الجهل ورأى فى اقتضاب هذا الحديث احتقارا له . ولكنه عزم مع ذلك أن يتابع حديثه معه .

ـ ولم لاتذهب الى الوادى الخصب فى اعلا الجبل . لعلك تجد فيه ارضا واسعة .

ـ اذهب انت اليه .

ـ اليست فيه فاكهة كثيرة ورزق عظيم ؟.

– (منهكما) احضر لى بعض فاكهته حين تعود منه .

– لعلك لاتصدق ان هناك واديا كالذى اصفه لك .

وتشاغل عنه الرجل وهو يعمل بفاسه فى الارض واعرض عنه ولم يجبه بشيء .

ولما راى موسى اعراضه تركه وهو عليه حانق وتابع سيره وحمل متاعه بطرف عصاه ووضعها على كتفه كما يفعل الفلاحون فى مصر . واتخذ طريقه فى واد طويل اخذ يضيق شيئا فشيئا.

وشق على نفسه ما لقيه من الناس جميعا منذ خرج من مصر هاربا . وغضب على نفسه اشد الغضب ان تعرض بفراره هذا الى الوان من الهوان انزلها به بدو رحل وصيادون جهلاء . وهذا الفلاح الصغير هزأ به وتهكم عليه وحقر امره . وكان قبل فراره اسرع الناس غضبا لكرامته واشدهم اعتزازا بنفسه . ولم يكن يجهل أن حياته غير طبيعية . مضطربة منذ يوم ولد . عاش فى قصر فرعون عيشة عجبا تختلف عن حياة اهل ذلك القصر كافة. وذكر انه ترك فرعون مختارا . وهو يحسب انه سيجد فى قومه وبين شيعته حياة اقرب الى نفسه ما سيكون فيها من شدة وفقر وعذاب . ثم فعل فعلته وهو يحسب انه انما ينصر مظلوما ، ويحق حقا واضحا . وكان يظن ان ذلك مما لا يعاقب عليه احد . فلما تبين انه قتل نفسا بغير نفس علم انه افسد بذلك حياته كلها. وانه اصبح طريدا. لايرجو من الدنيا الا أن يجد عملا يقتات من جزائه مهما يكن حقيرا . وماوى يسكن اليه . وكبر عليه انه لم يجد شيئا من ذلك حتى الآن . وهو اقل ما يرجوه انسان لنفسه مهما يكن فيه من ضعة وضعف ويأس . وذاق مرارة الذل . ولم يعد له امل يرجوه الا ذلك الامل الواهى الذى تعلق بالوادى البعيد الذى لم يؤمن بعد انه موجود فعلا .

كان يعرف من نفسه الشجاعة اقداما وصبرا . لم يرهب احدا يوما رهبة تمنعه ان يحق حقا او يقوم بواجب او ينصر ضعيفا او يؤنب ظالما . اما اليوم فقد اصبح جبانا رعديدا لا يفكر الا فى الفرار . واشتد به الخوف فالهاه عن ان يفكر فى امه التى كانت تعيش مؤملة فيه الخير كله . ترجو ان يعوضها بعض المكروه الذى ذاقته فى حياة مملوءة بالكروب . والهاه عن ان يفكر فى اخته التى حملته رضيعا والقته فى اليم ودلت اهل فرعون عليه غير هيابة لهؤلاء الأسياد . وكان تحدث العبيد الى الاسياد امرا محفوفا بالمخاطر . وكان قومه يئنون من العذاب. وكانوا يرجونه ليوم يستطيع فيه ان يخفف عنهم بعض هذا العذاب بعد أن نال الحظوة عند فرعون نفسه . عرفوا عنه ذلك فباتوا يرجونه للجلى . فلما جاءهم كان قدومه شرا ونذيرا بعذاب أشد لا يعلم أحد مداه .

حين ذاك اشتد به الرعب فلم يفكر الا فى الفرار . وكان يعلم ان فرعون نفسه اقرب الى الطيبة والبساطة منه الى العنف والانتقام . وانه غفر له من قبل كثيرا من سيئاته . ولكن الامر اصبح جدا بعد أن فعل فعلته المنكرة وهو بعد كثير العدو قليل الصديق . ولم يشك انه سيكون من رجال فرعون من يقولون له : ان العبيد اذا علموا ان

أرضها حجارة صلدة قلقة تضطرت تحت قدميه وارهقه الصعود في هذا الوادى . واهل السهول يتعبهم الصعود أكثر مما يتعب اهل الجبال . ولهؤلاء اسلوب فى الصعود باجسامهم لا برجلهم فلايعيبهم تسلق الجبال الساعات الكثيرة. وسمع على مقربة منه خرير ماء يجرى من عين صغيرة ثم ينحدر بين الصخور الى غير قرار يراه . وكان الماء عذبا صافيا باردا . روى نفسه منه وغسل يديه وقدميه وهو يحسب ان ذلك يذهب بما فيها من حرارة واحتقان والم. وهو خطأ لا يقع فيه من خبر السير الطويل فى الارض القفرة . وعزم ان يقضى ليلته عندها غير نادم ولا قلق .

وخطر له ان هذا الماء قليل حلو . وان ماء الانهار فى السهول كثير كدر . وكانما الانسان من الحياة لا يكون الا احدى حالين . حياة قليلة صافية حلوة او حياة كثيرة كدرة . اما الحياة الكثيرة الصافية فلعله لا سبيل اليها . وذكر موسى ما عاناه من الحياة الكثيرة الخبيثة فى قصر فرعون . وخطر له انه يكون سعيدا لو ان هذا الماء القليل انحدر الى ارض تنبت نباتا حسنا يأكله وترعاه دوابه ويقيم حوله كما يفعل الفلاح الصغير الذى لقيه اول الطريق . وانه مستعد أن يقنع من حياته بهذا وحده لو تهيأ له. ولكن ذلك الفلاح له رفيقة واولاد ، يصلون بينه وبين الحياة وأين لطريد مثله أن يكون له ذلك ؟.

وكان من قبل لايطيق النساء . شهد منهن فى قصر فرعون كثيرات . منهن الشريفات الباهتات المتخاذلات. ومنهن الفاتنات تملأ عيونهن وبشرتهن حرارة الحياة وقوة الرغبة . وكان ينفر من هؤلاء لما يراه فى سلوكهن من ابتذال . اما اليوم فهو يحلم بأمنية عزيزة عليه ان يجد رفيقة تهيىء له ابسط الحياة .

وبدأ رحلته فى اليوم الثانى مبكرا نشطا سعيدا ثم وعرت الطريق وكثرت الحجارة وشق عليه السير وتعبت قدماه . وطال به المسير وهو لا يرى له غاية. فالطريق طويلة والوديان متشابهة والقمم عالية كعهده بها أول ما بدأ رحلته وكانها لا نهاية لها . كلما صعد قمة وجد وراءها قمما أعلى وابعد .

واشتد الجدب حوله فلم يعد يرى للخضرة أثرا . ولم يلق عين ماء واحدة منذ ترك العين الاولى . وأزعجه هذا الجدب الذى احاط به وهو من تعود الخضرة والماء والشجر فى مصر . فالجدب عليه اشد وأقسى . ولم يبشره شىء بقرب الوادى الجميل الذى يرجوه. واشتد عطشه ثم وجد قليلا من الماء الراكد فى منخفض من الارض وحمله عطشه على أن يعب فيه وهو واضح الكدر تعافه النفس لو ان له الى غيره سبيلا .

وقضى ليلته الثانية فى فجوة من الجبل تعلوها صخور كبيرة تقيها شدة البرد وصقيع الليل وكان متعبا . ولكنه تعب لم يبلغ حد الانهاك . ومن التعب البالغ ما يشعر بالصحة والقوة . ومنه ماينسى المرء همومه وافكاره وتشاؤمه فلا يفكر فى راحة جسمه من هذا التعب الذى يكاد يكون مريحا لذيذا .

دخل هذه الفجوة وقد ورمت قدماه وتنقطت عن فقاعات كبيرة جعلت السير عليه عسيرا . وجد حوله أعشابا جافة قديمة مما ينبت ويذبل حول الماء الضحل فأوقدها نارا صغيرة ووضع قدميه أمامها. فوجدها تذهب بألم قدميه وساقيه أكثر

مما ذهب به الماء البارد . ولما احس بالدفء انشرح صدره . وقنع بما يلقاه من راحة لجسمه وعقله .

واقبلت على النار هوام كثيرة صغيرة . وبعض الفراشات البيضاء الرقيقة . وعجب لذلك اذ كان يحسب ان هذا المكان لا يصلح لحياة الكائنات مهما تكن صغيرة . وكانما رأى فيها رفقاء غربة يترفق بها . وحزن حين رأى فراشة تقبل على النار فتحترق أجنحتها قبل ان يستطيع انقاذها .

وسطع القمر على هذه الفجوة ففرح به فرحا شديدا . أليس هذا هو القمر نفسه الذى يسطع الآن على مصر . والذى يعلو الآن فى سماء مصر مطلا على من فارقهم من أحبابه وأعدائه . وكانما وجد فيه ما يصله بالناس والحياة . وخيل اليه أن وحدته الموحشة ليست انقطاعا تاما عن أهله وأصحابه بل استوى عنده اذ ذاك من كان يحب ومن كان يكره فهو مشوق اليهم جميعا .

وأخذت أحلامه تحلو له . رأى فى ما يرى النائم ان احدى فتيات قصر فرعون وكانت تهواه أقبلت عليه . وكان يعرض عنها دائما . أما اليوم فلم يعرض عنها بل تركها تقترب منه وتقبله وهو لا يشيح بوجهه عنها . وطاب له ان يرى فى حلمه وجها جميلا مشرقا وشفتين حمراوين يفترآن عن ابتسامة حلوة . وشعرا ناعما . وبشرة بيضاء رقيقة وجسما دافئا يحتضنه ويعطفا وحنانا . وكان فى أشد الحاجة الى ذلك كله بعد أن ذهب الجدب الذى حوله ولون الصخر الرمادى القاحل بكل ما يشعره بجمال او طمأنينة .

وقام من غده يتابع صعوده هذه الجبال التى لا آخر لها . وكان سيره بطيئا وتعبه بالغا . ولكنه كان يعلم انه سيبلغ الوادى يومه هذا . وساعده هذا الامل على احتمال المشقة والالم . ولما كان وقت الظهيرة وجد نفسه فوق هضبة واسعة مستوية تحيط بها قمم غير عالية . يستطيع من أراد أن يرتقيها . ومال بصره فلم يجد منها مخرجا . وخيل اليه لجهله بطبيعة مسالك الجبال ان هذا آخر الطريق . ولم يكن يدرى أن طرق الجبال قد تكون ضيقة بين صخرتين ولا يكون طريقا واضحا دائما ، وأزعجه أن يكون هذا آخر رحلة . وكان يظن آخر الطريق جنات فيحاء وفاكهة واشجارا وماء كثيرا جاريا .

وكان قد أرهق عينيه ألوان الصخور القاحلة والحجارة الجافة ووهج الشمس . وبرح بهما الألم وغشيت عيناه فاضطربت لذلك أعصابه . وكان يتمنى اذ ذاك لو رأى ورقة واحدة خضراء أو قطرات من ماء يسيل .

واجتمع عليه التعب والجوع والعطش واليأس . ولما رأى الغاية التى انتهى اليها هضبة مرتفعة قاحلة لا مخرج منها ، ولا طريق وراءها خارت قوته وتهافت على أقرب صخرة اليه وتملكه اليأس . ولليأس قدرة على الارهاق لا يبلغها التعب ولا الالم مهما يكن مبلغهما .

وتمثلت أمامه فى تلك اللحظة حياته كلها وما فيها من اضطراب . ومرت أمام مخيلته صورها متتابعة سريعة : طفولة غير طبيعية . كان فيها موضع عطف وحنان من امرأة فرعون يشبهان عطف الامومة وحنانها وليسا منها فى شىء . وحب تقدمت به اليه نساء كثيرات ولكنه حب محدود الغاية معروف أصله وأغراضه . وكان يراه حبا قذرا . وهو

شديد الاحساس بالفذارة يعانيها مهما قيل له عن لذاتها . وصداقة قامت بينه وبين شباب ذلك القصر ممن هم فى مثل سنه ونشأته ، ولكنهـا لم تكن صداقة تامة خالصة . كان موضع ثقتهم دائما دون ان يكون موضع سرهم ابدا وكانوا يعجبـون به حين يفـوقهم فى الصيد واللعب والفتوة . وكانوا يستنصحونه ويتبعون ما يشير عليهم به . حتى اذا هموا بامر من عبث الشباب كتموه عنه فهم يحبون مالا يحب ولا ينفرون ممـا ينفر منه كانهم يعرفون فيه من الطهر مالا قبل لهم به .

علم علم الكهنة فحقر فى عينيه ذلك العلم . راى ان يقـدم لكبار الكهنة ما يطلبونه من طاعة عمياء وخضوع تام . ثار على تعاليمهم ونفاقهم وخلقهم فغضبوا عليه . والبوا عليه ذوى النفـوذ فى الدولة ولم يكن شانه مع هؤلاء خيرا من شانه مع الكهنة . وكان يكره منهم الذلة والخضوع لمن يعلونهم والقسوة العاتية على من دونهم مقاما أو جاها أو غنى .

وكانت ثورته هذه ترضيه من نفسه وهو فى قصر فرعون . أما اليوم فقـد تجلى له أثر هذه الثورة . جعلته طريدا . واحالته جبانا . وتركته يائسا . وليس امامه بعد جهاده فى سبيل الخلق القويم كما تصوره الا الخيبة . وكان خيرا له لو تخلق بخلق من حوله ، يحيا حياتهم وينعم بما ينعمون به ولو بقدر .

وظن انه سيجد قوما آخرين أقرب الى طبيعته وخلقه . وها هو قد أخفق فى تحقيق هذا الامل استدبر حياة القصور التى كرهها . ولم يستقبل الحياة التى يرجوها . وهو اليوم قد جاوز اليأس واصبح قريبا من موت لايرى منه مفرا .

أيكون تمسكه بنوع خاص من الخلق الكريم سببا فيما أصابه من شر ؟ . أيكون ترفع الانسان ترفعا عظيما عمن حوله مؤديا الى عكس ما يراد من الترفع؟

ولم يكن يريد الا أن يحيا حياة هادئة مطمئنة غير صاخبة مهما يكن ضيقه . وكان يظن أن حياة الناس تضطرب ، يرغبون رغبة عارمة فى امر لا يستطيعونه فتحيلهـم ذلك على الشطط وليس له شىء من ذلك . غيره يصيبه الشر حين تعتريه غيرة ممن هم اغنى منه او حقد على من هم اقوى منـه . او تعلق بما لا سبيل اليه ، ولم يقع فى شى من مثل هـذا . فمن اين اتاه الخطأ الذى أوقعه فى ما وقع فيه ؟ .

والناس جميعا يخطئون كثيرا وقـد يكون خطأهم فاحشـا ثـم لا يصيبهم ما أصابه . وهو لم يرتكب الا جرما واحدا حين قتـل مصريا ظالما ولم يكن يريد قتله انما كان يريد أن يمنع شره . فكيف اختص هـو بجزاء فظيع كالذى تعرض له .

وندم على ما تردى فيه بعد جريمته . ونـدم على جبنـه حين فر من الجزاء الطبيعى لما فعل فكان ان تعرض لما هو أفدح . والواقع انه فر من مصر لا جبنا ولا خوفا ولكن حمله على ذلك أن قومه غضبوا عليه وطلبوا اليه أن يرحل عنهم حتى لا يحمل الابرياء منهم مغبة الذنب الذى ارتكبه .

ولما ذكر قومه أحزنه ماهم فيه من ذل وبؤس وما يتعرضون له من ظلم . على أن شيئا برح به أكثر من تعرضه للموت القريب . ذلك أن قومه علقوا عليه آمالا كبارا فخان آمالهم كلها . ولم يبك لشىء مما أصابه حتى سـاعته هذه . ولكن

عينيه دمعتا حين ذكر آمال قومه فيه . ظنوا فيه القوة فلم يجدوا الا الضعف ووثقوا بحكمته وعلمه فتبين له وفهم أنه ليست به حكمة ولا علم . وكان أقسى شيء عليه في هذه الساعة المظلمة ضياع آمال المؤملين فيه الى غير رجعة . وانه لن يستطيع أن يكفر عن هذه السيئة أبدا .

ومرت ساعة حسبها عمرا
ثم مرت ساعة حسبها دهرا

وغلبته غريزة البقاء فتحامل على نفسه ليقف . وعزم أن يعود أدراجه وان ينزل من فوق هذه الجبال فيعود الى الفلاح الصغير الذي لم يأبه له . بل تمنى أن يعود الى الصيادين الذين كرهوه بل لم ير بأسا أن يعود الى قومه الذين رغبوا أن يفارقهم . ولعله كان يقبل اذا اشتد به الحال أن يعود الى فرعون يستسلم له ليقتصوا منه كما يشاءون.

وتقدم بضع خطوات . تبين له عند ذلك ان النزول أصعب من الصعود . ووجد نفسه يخطىء التقدير في خطاه . فهو يحسب ان الخطوة النازلة أقرب أو أبعد مما هي عليه في الواقع فكان يتزل بعنف على الصخرة القريبة . ويظن الصخرة البعيدة قريبة فتزل قدمه .. وتعب من ذلك تعبا شديدا . وبينما هو واقف يريد أن يقدر خطوته التالية تقديرا صحيحا وقع (من طوله) ووجد نفسه منكبا على وجهه . ولم يكن ذلك اغماء ولا زلة قدم وانما كان خور الهزيمة واضطراب النفس . ولما لم يقو على النهوض عرف أن من العبث أن يحاول النجاة بالنزول .

وأيقن أنه هالك لا محالة في مكانه هذا . وكأنما أخذ يؤبن نفسه . وخيل اليه أنه من العار أن تبقى جثة في العراء . وهو ممن نشأوا على العناية بجثث الموتى الى حد بناء أهرام تقيها البلى . وتوابيت ضخمة تحميها من الفناء . وعز عليه أن يبلى جسمه على هذا النحو وود لو استطاع أن ينقش على حجر بجانبه رجاء للذئاب ـ ان كان في هذه البقعة ذئاب ـ ألا تنهشه . أو توسلا الى الطيور الجارحة ـ ان كان منها من ضل طريقه في الهواء فبلغ هذا المكان كما ضل هو الطريق في الارض ـ أن تتعفف عن هذا الجسم الذي كان كريما جميلا وكان موضع آمال الناس وحبهم فلا يتخطفونه . ولكن أين له أن يأمر الامطار والرياح أو يرجوها أن الا تذيبه وتكتسح ما يبقى منه الى أسفل الوادي فينتهي أمره الى الابد الا جمجمة خربة وعظاما هشة وهو ما كان يخشاه المصريون أشد خشية .

ثم استطاع أن يجلس . وبينما هو في وسط هذا السكون المظلم وهو في رابعة النهار سمع صوت رنين جرس صغير . سمعه بعيدا خافتا . ولم يتبين حقيقته . وحسبه من تصورات الذهول الذي يعترى المشرفين على الموت . ومضت مدة حسبها طويلة جدا وهو يصيخ الى الفضاء يلتمس أضعف الاصوات . ثم سمع الصوت نفسه أقرب اليه وأقوى وتساءل ماذا يكون هذا الصوت . انه من غير شك ليس صوت الرياح حين تمر في الفجوات الضيقة بين الجبال . بل هو صوت جرس لا نزاع فيه . ثم سمعه قريبا قويا . والتفت وراءه فاذا بالصوت يصدر عن جرس صغير معلق في رقبة ماعز صغيرة تنظر الى غير وجهته ثم أخذت تتلفت يمنة ويسرة وهي فوق